الباب الثاني

نظريات جغرافية

تعليق المترجمين

يحدث التقدم عندما يكون هناك تراكم في المعرفة والخبرة، وعندما تكون هناك رغبة في الاستفادة من جديد العلوم المختلفة. والجغرافيا علم منهجي قديم، أي، له فلسفته ومنهجه ولأنه قديم فله تراكم في المعرفة والخبرة. والجغرافيا علم شمولي، يدرس الإنسان والبيئة التي يعيش فيها وينشط، سواء أكانت بيئة طبيعية أم من نتائج الإنسان نفسه. ولهذا السبب هناك تماس وتداخل، في بعض الحالات، بين الجغرافيا ومختلف العلوم الطبيعية والإنسانية. فقدم الجغرافيا ومنهجيتها وتلاحقها مع العلوم الأخرى تجعلها علماً دينامياً يتطور بسرعة تتناسب طردياً مع معدل حركة العلوم الأخرى. ولما كانت العلوم الأخرى مهتمة بإيجاد القوانين والضوابط التي تحكم وتؤثر في مفرداتها، لذا فالجغرافيا ليست بعيدة عن هذا المنهج العلمي.

تدرس الجغرافيا الظاهرات البشرية والطبيعية وتوزيعها المكاني وتفسر هذا التوزيع على ضوء طبيعة العلاقات والعوامل والعمليات التي ترتبط بتوزيع الظاهرة وتؤثر عليها. ودراسة التوزيع والتغيير وبالتالي التنبؤ بما يمكن أن يحدث. بعبارة أخرى، وضع نماذج تعكس اشتقاقاً ما يحدث في الواقع بشئ من التبسيط والتوضيح، أو تحديد قواعد النمو والتغيير ومراحله وصولاً إلى وضع نظرية.

ولما كانت الجغرافيا على تماس مع العلوم الأخرى، فإن النظريات المستنبطة في العلوم الأخرى قد يكون لها نظائر أو تطبيقات مكانية. الجغرافيون معنيون بدراسة واستيعاب الحيز الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان وينشط. وكل شيء يساعدهم في هذا الاستيعاب لا يتوانون عن تفحصه والاستفادة منه، ويدرك الجغرافيون أن إدراك الفرد للبيئة المحيطة به (الحيز الجغرافي) يحدد بدرجة كبيرة سلوكه. لذا نظروا إلى الكيفية التي تنظر

بها العلوم الأخرى إلى المجاميع (بشرية، نباتية، حيوانية، الذرة، ...) وأخذوا منها ما يدل على تشابه أو تقارب مع المنظور المكاني (الجغرافي) للظواهر وما يساعدهم في تفسير التوزيعات والتباينات. ومن جملة ما أخذ الجغرافيون المنظور النظامي System Approach للظواهر، وفسروا التباينات المكانية وما يطرأ عليها من تغيير على أساسه.

كان لفصل مكان العمل عن مناطق السكن أثر كبير على أنماط حياة الناس، فعامل المسافة أصبح أمراً يعاني منه الإنسان وتفاقم نتيجة ذلك اهتمام الجغرافيين به. ولاستيعاب هذا العامل تساءل الجغرافيون عن طبيعته وطبيعة أثره. ومن هذه التساؤلات:

- هل تتشابه الشعوب، والمجاميع، في نمط رحلاتها وتنقلاتها اليومية؟ وهي الأنماط ثابتة؟ وماذا يؤثر عليها؟
- هل يمكن قياس أثر المسافة على أنماط العلاقات؟
- هل لاستيعاب الشخص الحيز الجغرافي علاقة بنشاطه وحركته فيه؟ واتخاذه قراراته اليومية؟
- ماذا لو تم غلق طريق معين يربط بين منطقتين حيويتين لمدة من الزمن، كيف يؤثر هذا على نمط التنقل في المدينة؟
- ماذا يعني إيجاد خط جديد للنقل بين المدن؟ داخل المدينة؟
- هل تتحرك المدن باتجاه بعضها لتكون أقرب؟ وكيف؟
- هل يمكن تنظيم الحيز الجغرافي بطريقة تجعل الخدمات قريبة من مستخدميها (سهلة الوصول)؟
- كيف يمكن توزيع الخدمات لتكون قريبة من المستفيدين منها؟
- كيف تحولت نظرية الأماكن المركزية من نموذج ثابت إلى نموذج دينامي يعرض الحركة الحاصلة في الأماكن المركزية؟

في هذا الجزء من الكتاب أثار المؤلف العديد من هذه الأسئلة وعرض بإيجاز الطريقة التي أجاب بها الجغرافيون من مختلف بقاع الأرض عارضاً نماذج من دراسات في الولايات المتحدة والسويد وإنكلترا والبرازيل وفينزويلا. وقد كان محور النماذج قيد الدرس، المسافة وتداعي أثرها بالابتعاد عن المركز. وقد قدمت دراسات بمستويات مختلفة إقليمية، حضرية (بين المدن وداخل المدينة) تعتمد هذا المحور ركيزة في تحليلها وتفسيرها.

وفق النظرة النظامية للحيز الجغرافي، والمنهج التطبيقي أصبحت الجغرافيا أكثر قرباً من المجتمع وأكثر خدمة ونفعاً له، وازدادت ميادين تداخلها مع العلوم الأخرى. ويضيف هذا مسؤوليات جديدة على الجغرافيين القيام بها. فقد أصبح من مهام البحث الجغرافي الحديث تحليل الأنماط التنموية لتحديد القواعد والضوابط التي تحكمها. من هنا جاء الاهتمام بالدراسات التتبعية والتاريخية، وتعاظم الاهتمام بالنمذجة واستخدام الحاسبات الالكترونية. إنها نقلة نوعية للجغرافيا، لا يحق للجغرافيين التراجع عنها، أو الوقوف بوجهها. أدت هذه النقلة إلى أن يحس الجميع بأهمية الجغرافيا كعلم سكاني ميداني منهجي وليس كمعلومات عامة.

في الوطن العربي، كيف ينظر الآخرون إلى الجغرافيا؟ وهل أدى الجغرافي ما يجب عليه أو يؤديه من واجبات علمية تخدم خطط التنمية القومية والإقليمية؟ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولن تتغير نظرة الناس إلى الجغرافي حتى يغير الجغرافيون منهجهم واستراتيجيات البحث التقليدية التي يعتمدوها. وليس هذا أمراً مستحيلاً أو حتى صعباً، بل كل ما يحتاجه: عزيمة وإقدام فقط. وما يستطيع عمله جغرافيو الغرب نستطيع القيام به في بلادنا وبذات المستوى إن لم يكن أفضل.